المدرسة المغربية ووظيفتها الايديولوجية

1 — ملاحظـــات أوليـــة :

يطرح الموضوع الذى نحن بصدد مناقشته اليوم (1) قضية هامة، خاصة فى العصر الحاضر عصر الصراعات الايديولوجية . انها قضية الدور الايديولوجى الذى تلعبه المدرسة المغربية حاليا . وبعبارة أخرى، المصالح الطبقية التي يخدمها نظامنا التعليمى الراهن ككل . ولعل بعضكم يتساءل : ما علاقة المدرسة بالايديولوجيا ؟ أليست المدرسة كما يقال عادة ، مؤسسة اجتماعية « محايدة » ، مهمتها تربية النشء وتعليمه واعداده لمواجهة الحياة ؟

الواقع انـــه من السذاجة ، بل من الغفلة ، اعتبار المدرســـة مؤسسة محايدة . فعلى الرغم من انها لا تكتسى طابعا حزبيا رسميا ولا صبغة طبقية مكشوفة ، فانها كانت ، وما تزال ، جهازا للتاطير الايديولوجى : فمن خلال الهياكـــل التعليمية القائمة ، ومن خـــلال المناهج والكتب والاساليب التربويـــة المتبعة ، ومن خلال القوانـــين والتشريعات التى تنظم سير التعليم ، تتسرب الى المدرسة عناصـــر كثيرة واساسية من الايديولوجيا السائـــدة . هذا فضلا عن المـــواد الدراسية ذات الطابع الايديولوجى الواضح ، كالتربية الوطنية والتاريخ

(1) محاضرة القيت بنادى جمعية الطفولة الشعبية يوم 18—6—75 بدعوة مـــن الجمعية المذكورة . ونشرت بمجلة « اقلام » عدد 9—10 يوليوز 1975 .

والفلسفة والعلوم الانسانية والمواد التراثية عامة . ان المدرسة في المجتمعات الحاضرة ، المتقدمة منها والمتخلفة ، جهاز حيوي فعال تمارس بواسطته الطبقة الحاكمة سلطتها ، ربما بشكل اكثر عمقا واكثر تأثيرا من الاجهزة السلطوية الاخرى ، كالجيش والشرطة . ذلك لان سلطة المدرسة تنفذ الى الميادين التي لا تستطيع هذه الاجهزة السلطوية بلوغها والتأثير فيها . انها تعمل على توجيه تفكير الطفل وقولبة سلوكه منذ اللحظة التي يبدأ فيها في التفتح على الحياة بشكل واضح منظم .

وكما تخدم المدرسة ، بشكل مباشر وغير مباشر معا ، الايديولوجية السائدة في المجتمع ، وهي اساسا ايديولوجيا الطبقة الحاكمة ، يعكس النظام التعليمي ككل ، الوضعية الطبقية السائدة ، ويعمل على اعادة إنتاجها باستمرار .

يتجلى ذلك ، في المجتمعات الراسمالية وفي البلدان « النامية » التي تسير في ركابها ، في عدة أمور ، منها :

— الفصل التعسفي بين التعليم العام والتعليم المهني ، بين المعاهد النظرية والمعاهد التطبيقية ، بين الشعب الادبية والشعب العلمية ، فصلا لا يقوم على اعتبار الاستعدادات الفردية ، ولا حاجات البلد ومتطلبات التنمية ، كما يقال عادة ، بقدر ما هو امتداد لظاهرة طبقية عامة ، ظاهرة الفصل بين العمل اليدوي والعمل الفكري . انه فصل يعكس في الحقيقة والواقع ، انقسام المجتمع الى طبقات ، تحدد كل طبقة منها ، لابناء المنتمين اليها ، الطريق الذي سيسلكونه داخل النظام التعليمي وخارجه .

— اقامة الحواجز والعقبات بين التعليم الابتدائي والثانوي ، وبين هذا الاخير والتعليم العالي ، حواجز وعقبات تتسلسل من ابسط اساليب « المراقبة البيداغوجية » الى نظم الامتحانات والمباريات ، وتنطلق كلها من مبدأ « المنافسة » . مبدأ « البقاء للاصلح » . « والاصلح » في النظام الراسمالي ، وفي هذا المجال بالذات ، هو من تمكنه طبقته من الوسائل والامكانيات التي تساعده على اجتياز هذه الحواجز . ولذلك كانت الاغلبية الساحقة ممن يصلون الى ارقى

درجات التعليم ، هم أولئك الذين ينتمون الى الطبقات الموسرة : الطبقة البورجوازية ، والطبقات المتوسطة .

ـ تركيز التعليم الثانوى والعالي ، والمعاهد المتخصصة كذلك ، في كبريات المدن حيث تعيش الطبقات الموسرة هذه . ومن ثمة اغفال البادية اغفالا كبيرا ، حيث لا يتجاوز نصيبها من التعليم ، الفصول الاولية التي قليـلا ما تصل ، أو تتعدى ، قسم الشهادة الابتدائية .

بهذه التدابير والاساليب ، وبغيرها من النظم المماثلة ، يعمـل التعليم في المجتمع الراسمالي ، على تكريس الوضعية الطبقية السائدة واعادة انتاجها بشكل ينمي الفوارق الطبقية ويعمقها ، ويقوى ، بالتالي، سلطة الطبقة المسيطرة .

بعد تاكيد هـذه الحقيقة ، وقبل تحليل نظامنا التعليمي الراهن على ضوئها ، نرى من المفيد القاء نظرة سريعـة ، من هذا المنظور بالذات ، على النظام التعليمي الفرنسي ، الذي يعتبر تعليمنا الحالي امتدادا له ، وذيلا من ذيوله المتخلفة .

2 ـ المدرسـة الراسماليـة الفرنسية :

نشأ النظام التعليمي الفرنسي الحالي ، كما هو معروف ، كجزء من البنيات الفوقية لعلاقات الانتاج الراسمالية . أن المدرسة الحديثة التي انشأتها البورجوازية الفرنسية في القرن الثامـن عشر كانـت عبارة عن بديل للنظام التعليمي الكنسي الاقطاعي الذي ظل سائدا في اوروبا طوال القرون الوسطى وبداية العصر الحديث ، بديل يخدم مصالح الطبقة البورجوازية ، واهدافها ، ويساهم في النضال العام الذي شنته ضد النظام الاقطاعي وايديولوجيته . ومن ثمة استمرت المدرسة الفرنسية تساير النظام الراسمالي وتواكب تطوره ، وتعمل على تلبية حاجاته من الايديولوجيين والتقنيين والاطر العاملة ، في نفس الوقت الذي تقوم فيه بنشر الايديولوجيا البورجوازية ، وتعميمها وفرضها على المجتمع كلـه .

هذا واقع تاريخي معروف لا نحتاج الى تفصيل القول فيه . ولذلك

يكفى هنا أن نرسم بايجاز بعض معالم الصبغة الطبقية للمدرسة الفرنسية الراهنة .

يضم الهيكل العام لنظام التعليم فى فرنسا شبكتين من المدارس(1):

— شبكة المدارس الابتدائية — المهنية وتضم الاغلبية الساحقة من التلاميذ (ثلاثة ارباعهم) ، ووظيفتها الطبقية : اعادة انتاج البروليتاريا.

— شبكة المدارس الثانوية والعالية ، اى الشبكة التى تستقبل الاطفال « المحظوظين » فى الدراسة الابتدائية ليتابعوا طريقهم نحو التعليم العالى . والوظيفة الطبقية لهذه الشبكة : اعادة انتاج البورجوازية .

ويرى بودلى واستابلى ان الفصل بين الشبكتين يتم بشكل عمودى انطلاقا من السنة الابتدائية الاولى (القسم التحضيرى) . ذلك لان النجاح او الفشل فى تعلم الكتابة والقراءة بالسرعة المطلوبة ، فى هذه السنة، هو الذى يتحكم فى مصير الطفل : فاما ان يكون « ممتازا » فى القسم التحضيرى ، وحينئذ يشق طريقه بسهولة نحو المدارس الثانوية والمعاهد العليا ، واما أن يكون « متخلفا » أو « متوسطا » (فى القسم التحضيرى) وحينئذ يكون مصيره هو الطريق الآخر ، الطريق الذى يسير به من الاقسام الابتدائية الى الاقسام المهنية لينتهى به المطاف الى المعمل ، حيث يجد نفسه ذات يوم ، عاملا بروليتاريا مستغلا من طرف الطبقة البورجوزاية ، المطعمة بعناصر جديدة ، هم اولئك الاطفال الذين كانوا يجلسون معه فى صف واحد عند دخولهم المدرسة اول مرة .

والنجاح او الفشل فى تعليم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ، فى القسم التحضيرى لا تتحكم فيه القدرات والاستعدادات الفردية ، البيولوجية والنفسية ، بقدر ما تتحكم فيه الوضعية الاجتماعية الثقافية التى يعيش فيها الطفل ، اى الطبقة التى تنتمى اليها أسرته . ان هذا « الاصل » الطبقى هو الذى يتحكم ، الى حد بعيد ، فى « نبوغ » الطفل أو عدم نبوغه . وهذا شىء واضح : فالاسرة المنتمية الى الطبقة

(1) اعتمدنا هنا بالخصوص على كتاب بودلى واستابلى ، وهو بعنوان : « المدرسة الرأسمالية فى فرنسا » .

البورجوازية هى علاوة على ثروتها وامكانياتها المادية ، اسرة مثقفة فى الاعم الاغلب ، وتتوفر على اوقات فراغ - وعلى امكانيات مادية ومعنوية تمكنها من تهييء طفلها للدراسة الابتدائية (مدارس الحضانة) ، ومن مساعدته بمختلف الطرق والوسائل خلال مراحل دراسته ، الشيء الذى لا تملكه الاسرة الفقيرة ، الاسرة البروليتارية التى يضطر الزوج والزوجة فيها الى العمل طوال النهار من اجل كسب العيش مما يمنعها عن القيام بمراقبة الطفل فى دراسته وتقديم المساعدات الضرورية له ، هذا علاوة على عدم توفرها على السكنى المناسبة ، وضعف مستواها الثقافى وجهلها النسبى بأساليب التربية المنزلية الحديثة .

هكذا يتضح ان الهيكل العام لنظام التعليم فى فرنسا يعكس الوضعية الطبقية السائدة ويكرسها - انه تعليم يخدم الاطفال « الممتازين » ابناء العائلات « الممتازة » ، ويعرض عن الاطفال الآخرين ، ابناء الاسر الفقيرة ، وذلك منذ السنة الابتدائية الاولى اى منذ السنة الخامسة او السادسة من عمر الطفل . هكذا يتقرر مصير الطفل فى الحياة بمجرد ان يبدا فى التفتح على الحياة : اطفال ينتحقون بالمدارس المهنية لينضموا الى البروليتاريا ، وهم الاغلبية ، واطفال يواصلون دراستهم عبر الثانويات والمعاهد العالية ، وهم الاقلية التى ستمد الطبقة البورجوازية التى ينتمون اليها بدم جديد وكفاءات جديدة . وبعبارة ماركس ، هناك من سيجدون انفسهم يوما مضطرين الى بيع قوة عملهم لكسب عيشهم، وهناك من سيصبحون « موظفين للرأسمال » ، مالكين لزمام السلطة الاقتصادية والسياسية التقنية .

جملة القول : ان الدور الطبقى — الايديولوجى الذى تقوم به المدرسة فى المجتمع الراسمالى ، دور مزدوج ومتكامل :

1 — الفصل ، والتمييز ، بين طبقتين اجتماعيتين : الطبقة البورجوازية ، والطبقة البروليتارية . اى اعادة انتاج نفس العلاقات الاجتماعية الراسمالية ، على الرغم مما يحصل من تقدم فى قوى الانتاج (التقدم التكنولوجي لم يسفر لحد الآن عن اى تغيير اساسى فى علاقات الانتاج ، ويجب ان يعزى للمدرسة دور اساسى فى هذا المجال، لانها تعمل ، كما قلنا ، على اعادة انتاج نفس العلاقات الانتاجية ، بشكل يساير التقدم الحاصل فى قوى الانتاج نفسها) .

2 — نشر الايديولوجيا البورجوازيـــة وتعميمها واحلالها محـــل السيادة فى ثقافة المجتمع كله ، مع ادخال ما يلزم من التعديلات عليها. وذلك بنشر المفاهيم والقيم البورجوازية الليبرالية ، ومحاربة الفكـــر التقدمي ، بمختلف الوسائل والاساليب ، وفى مقدمتها المواد الدراسية والكتب والبرامج . الخ .

واضح من هذا ان المدرسة جهاز ايديولوجى فعال فى يد الدولة الراسمالية : انها تعكس الواقع الاجتماعى الراسمالى فى هيكلها العام، وتعمل على تركيزه وترسيخه بنظمها ومناهجها وأساليبها . انها جهاز « حيوى » فعال ، لان تاثيره لا يقتصر ، كما قلنا سابقا ، على ميدان العلاقات الاجتماعية ، بل يتعدى ذلك الى حياة الفرد الخاصة، الى توجيه الوعى وتوليبة السلوك .

3 — الطابع الطبقى للتعليم الفرنسى فى المغرب :

بعد هـــذه اللمحة الموجزة عن الوظيفة الطبقية — الايديولوجية للمدرسة الفرنسية الراسماليه ، نفتقل الآن الى التعليم الذى اقامتـــه الحماية الفرنسية فى بلادنا ، والذى لا زلنا نحتفظ على ما هو جوهرى فيه . ولنبدأ اولا بالتذكير ببعض المعطيات الاساسية فى الموضوع :

الظاهرة الاستعمارية ظاهرة كلية ، اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وبشرية . لقد غرست فرنسا فى المغرب اقتصادها الاستعمارى فى نفس الوقت الذى بدأت تشيد فيه « دولتها » الراسمالية الاستعمارية، فانشات هكذا ، فى بلادنا ، منذ اللحظة الاولى ، جهازا اداريا يخـــدم الراسمال المغروس ، جهازا يعتمد المركزية والتدخل المباشر ، ويعمل على تكريس الوضع الطبقى السائد والمحافظة عليه ، والسير بنموه فى الاتجاه الذى يخدم مصالحها . والمهمة الاساسية ، بل الوحيدة ، لنظام التعليم « الحديث » الـــذى انشاته الحماية الفرنسية فى بلادنا ، هى خدمة الظاهرة الاستعمارية من جميع جوانبها ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية .

لقد بنت الحماية الفرنسية نظامها التعليمى فى بلادنا ، على اسس طبقية مكشوفة ، فانشات ثلاثة انواع من المدارس .

— « مدارس أروبية » خاصـــة بأبناء الاروبيين ، وهم فى الاعم الاغلب فرنسيون . ومهمتها خدمة الوجود الاستيطانى — الراسمالى — الاستعمارى ، لفرنسا فى المغرب ، وذلك بانتاج ، واعادة انتاج ، القوة البشرية والتقنية المكلفة برعاية الظاهرة الاستعمارية وتعميقها وتوسيع مداهـــا .

— « مدارس ابناء الاعيان » « والثانويات الاسلامية » ، وهى مدارس مخصصة للنخبة المغربية (ابناء الاعيـــان والوجهاء والموظفين المغاربة « الكبار » ، وأبناء كبار التجار والملاكين) . لقد كانت مهمة هذه المدارس ، انتاج ، واعادة انتاج نفس النخبـــة واعداد الموظفين الصغار والمتوسطين ليقوموا بدور الوسيط بـــين الحماية الفرنسية ، كادارة واقتصاد ، وبين « الاهالى » المواطنين المغاربة .

— مدارس ابتدائية — مهنية » فى بعض المناطق الحضرية والقروية، ومهمتها تكوين يد عاملة تخدم الاقتصاد الاستعمارى فى مختلف الميادين. ففى المناطق القروية مدارس « فلاحية » مهمتها امـــداد المعمرين باليد العاملة « المتعلمة » ، وفى المناطق الحضريـــة ، الصناعية والتجارية والادارية ، مدارس مهنية تمـــد المعامل الراسمالية الفرنسية بالعمال المدربين فى اشغال البناء والنجارة والصيد والملاحة ...) .

والى جانب هذه الانواع الثلاثة ، حاولت فرنسا انشاء نوع رابع، هو : « المدارس الفرنسية البربرية » . وكان الغرض من هذه المدارس التى لم تعمر طويلا — باستثناء مدرسة ازرو — العمل على عزل سكان الاطلس وفصلهم ثقافيا وحضاريا عن بقية المغرب .

لقد خططت الحماية الفرنسية لتعليمها فى المغرب على هذا الاساس الطبقى الاستعمارى الواضح . يقـــول السيد هاردى مدير التعليـــم بالمغرب (1920) :

« ان تعليمنا — اى التعليم الفرنسى فى المغرب — سيمكن الصغار من الحصـول على المفردات الضروريـــة للحياة العائلية والمهنية ، كما سيمكن الكبار مـــن اكتساب القـــدرة على تحرير الرسائل (رسائـــل المعاملات) ... ان هذه المبادىء التى تجب مراعاتها من اعلى الى اسفل فى سلك تعليمنا ستجد طريقها نحو التطبيق بواسطة المؤسسات التالية :

للنخبة الاجتماعية ، مدارس ابناء الاعيان التي تعطى ، فقط ، تعليما اوليا ، وثانويات اسلامية تهيىء للوظائف الادارية التجارية . وللطبقات الشعبية فى المدن مدارس حضرية ، تعمل على اعداد اولى للمهن اليدوية، والنجباء من تلاميذها يوجهون الى المدارس المهنية . اما جماهير البادية، فستكون لها مدارس قروية مزودة ببساتين للتعليم والتطبيق ، تعمل على تلقين المعلومات الاولية فى الفلاحة وتربية المواشى . والنجباء من تلاميذها يوجهون الى المدارس الحقلية . اما بالنسبة لسكان الشواطىء فستكون لهم مدارس خاصة بهم توجه الاطفال نحو الصيد والملاحة »(1).

اما عن المدارس الفرنسية — البربرية » فيقول عنها المسيو مارتي ، احد كبار الرؤوس الاستعماريه فى المغرب : « انها مدارس فرنسية بالمعلمين بربرية بالتلاميذ . وليس فيها اى مجال لاى وسيط اجنبى . ان اى شكل من اشكال تعليم العربية ، ان اى تدخل من جانب الفقيه ، ان اى مظهر من المظاهر الاسلامية ، لن يجد مكانه فى هذه المدارس . بل سيقصى منها جميع ذلك ، بكل صرامة » (2) .

واضح ، اذن ، **أن ما فعلته البورجوازية الفرنسية فى بلادها بشكل مقنع ، مستور مموه ، فعلته ((دولتها)) فى المغرب ، بشكل عار ومفضوح.** بل انها اضافت الى المضمون البورجوازى والتوجيه الراسمالى الذين يحملهما — اصلا — نظام تعليمها ، مضمونا استعماريا ، وتوجيها عنصريا .

يتجلى ذلك واضحا فى الهيكل التعليمى العام ، والاساليب « التربوية » والمضمون الثقافى .

1 — فمن حيث الهيكل العام ، حرصت الحماية الفرنسية على حصر التعليم فى نطاق محدود جدا ، كما عملت على تنويع مدارسه حسب الوضعية الطبقية ، قصد الابقاء على هذه الوضعية وتنميتها وتوسيع الشقة بين اطرافها . وهكذا فكما قسمت المغرب الى مغرب نافع ومغرب غير نافع ، وفصلت فى الاقتصاد المغربى بين « قطاع عصرى » « وقطاع تقليدى » ، وكما حاولت عزل « العرب » عن « البربر » ،

(1) للوقوف على تفاصيل اوفى فى هذا الشان ، انظر كتابنا : اضواء على مشكل التعليم بالمغرب — دار النشر المغربية — الدار البيضاء 1974 .
(2) انظر التفاصيل فى نفس المرجع .

وفصل البادية عن المدينة ، عملت على انشاء نظام تعليمى متنوع بتنوع هذه الميادين نفسها ، محافظة فى نفس الوقت على بقايا التعليم المغربى القديم ، فى شكله المنحط ، حتى يتسنى لها تكريس الازدواج فى الثقافة واللغة والفكر، وبالتالي خلق تيار ثقافى تقليدى متخلف (او على الاقل المحافظة عليه) ، وتيار ثقافى « عصرى » مشدود الى الثقافة الفرنسية خصوصا، والثقافة الغربية عموما .

2 — اما من حيث الاساليب « التربوية » فلقد اعتمدت الادارة الاستعمارية اسلوبا سلطويا فى التعليم ، كان امتدادا لسلطة المستعمر الغاصب . لقد كانت سلطة المعلم فى القسم سلطة مضاعفة : هناك اولا سلطته المادية والمعنوية بوصفه معلما تكون فى « المدرسة التربوية الفرنسية » ذات الطابع السلطوى الواضح ، ثم هناك ثانيا ، سلطته كفرنسى ، اى كرجل يمثل الحماية الفرنسية فى القسم وازاء الاطفال ، كشخص يجسم أمام أولاد « الاهالى » ، الجهاز الاستعمارى الحاكم . ان كلمة « مسيو » الذى يلفظ بها الطفل عند الحديث عن — او مع — معلمه الفرنسى ، تحمل فى ذهنه من معانى السلطة ضعف ما تحمله كلمة « فقيه » او « أستاذ » التى يتحدث بها عن معلمه العربى . اضف لى ذلك سلطة المدير والمفتش وسلطة « مقدم الحى » الذى كان يسوق الاطفال بالقوة الى مدارس الحماية عندما قررت الجماهير الشعبية مقاطعتها فى اطار النضال ضد الظاهرة الاستعمارية ككل . وباختصار لقد كان التعليم الفرنسى فى المغرب تعليما سطويا يبعث الرعب والخوف فى نفوس الاطفال ، ويعمل على قولبة سلوكهم وتعليبهم وعيهم .. وتعويدهم الطاعة والخضوع والاستسلام .

3 — واما من حيث المضمون ، فلقد كان التعليم الفرنسى فى بلادنا، يحرص بشكل واضح ، على تأطير التلاميذ تأطيرا ايديولوجيا محكما ، تأطيرا مستمدا من الايديولوجيا البورجوازية ، وخاصة من وجهها الشرس العدوانى ، وهكذا ، فمادة التاريخ مثلا كانت كلها اشادة بفرنسا « وعظمتها » مثلها فى ذلك مثل مادة المطالعة والادب التى كانت نصوصها تختار من أدبيات البورجوازية الاستعمارية ، فى حين كانت دروس الحساب مركزة اساسا حول العمليات الاولية وقواعد الربح والفائدة وغير ذلك من القواعد التى تستعمل فى المعاملات والحسابات

التجارية الرأسمالية . اضف الى ذلك كله . الاشادة باللغة الفرنسية وتحقير اللغة العربية ، ومحاربة الفكر الوطني والتقدمي .

والنتيجة المتوخاة من كل ذلك : تركيز « التفوق الفرنسي » في عقول الاطفال المغاربة ، وجعلهم يشعرون بالنقص ازاء أنفسهم ولغتهم وثقافتهم ووجودهم الحضاري ، وربطهم بلغة المستعمر وثقافته ربطا آليا . انه الاستيلاب في أقطع مظاهره .

4 — « المدرسة المغربية » الراهنة :

تلك كانت ، بالاجمال ، الاهداف الايديولوجية ، والمصالح الطبقية والاستعمارية المباشرة ، التي انشئت من أجلها « المدرسة الفرنسية » في المغرب ، فما هي التغييرات والتطورات التي داخلتها بعد الاستقلال ؟

لقد اكدنا ، قبل ، على كلية الظاهرة الاستعمارية ، اي على ارتباط الهياكل الاستعمارية ، الاقتصادية والادارية والتعليمية ، بعضها ببعض ، ارتباطا عضويا . وبما ان بلادنا لم تعرف بعد اي تغيير جذري يحول الهياكل الاستعمارية الى هياكل جديدة ، هياكل دولة وطنية ، تقدمية وشعبية ، فان التعليم الذي أقامته فيها الحماية الفرنسية ما زال يحتفظ بنفس البنيات والاساليب والمضمون ، مع تغييرات بسيطة سطحية لا تمس جوهره ولا اسسه .

نعم ، لقد تمت « مغربة » البرامج والمناهج ، و« مغربت » أطر التعليم الابتدائي كله ، ولكن ، فقط ، بالشكل الذي « مغربت » به الادارة ، و« يمغرب » به الاقتصاد . انها « المغربة » التي تحتفظ بالجوهر ، وتكتفي بتغيير الاسماء والمظاهر . وهكذا فكما تحول الاقتصاد الاستعماري والادارة الاستعمارية الى ايدي « المحظوظين » من المغاربة الذين احتلوا مناصب الاجنبي ، ونصبوا انفسهم وكلاء للرأسمالية الغربية ، والفرنسية منها خاصة ، محافظين هكذا على نفس البنيات التي اقامها المستعمر ، وعلى نفس العلاقات الاجتماعية التي تأسست عليها هذه البنيات ، تحول تعليمنا كذلك ، من تعليم يخدم اهداف المستعمر ومصالحه ، الى تعليم يخدم الطبقة الاجتماعية

التي حلت محله ، للنيابة عنه في خدمة الرأسمالية العالمية والايديولوجيا الامبريالية .

ان تعليمنا الآن ، هيكلا واسلوبا ومضمونا ، صورة ، لا نقول طبق الاصل ، بل صورة مشوهة ومتخلفة من التعليم في فرنسا ، تماما مثلما ان البورجوازية المغربية التي يخدمها هذا التعليم ، هي صورة متخلفة وهجينة من البورجوازية الفرنسية . **ان « المدرسة المغربية » الراهنة مدرسة رأسمالية متخلفة ، تعكس في تخلفها ، تخلف « الرأسمالية المغربية » وبورجوازيتها الظفيلية الهجنية .**

يتجلى ذلك من عدة معطيات لعل اهمها ، ما يلي :

1 — اذا نظرنا الى الهيكل العام لنظام التعليم القائم حاليا في المغرب ، وجدناه هيكلا ضعيفا ، مضطرب البنية ، مفكك الاوصال ، مليئا بالثقوب والثغرات . وهكذا فاذا كان التعليم في فرنسا ، يضم كما قلنا شبكتين من المدارس ، تعملان على استيعاب جميع الاطفال البالغين سن الدراسة — مع تمديد فترة الدراسة الاجبارية الى 16 سنة — فان هيكل تعليمنا لا يشتمل الا على شبكة واحدة ضيقة لا تضم سوى ثلث البالغين سن الدراسة الابتدائية (الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين 7 سنوات و11 سنة) . انها شبكة ملاى بالثقوب والثغرات ، فلا تحتفظ بين طياتها ، من بداية الدراسة الابتدائية الى نهاية الدراسة الثانوية ، الا على نسبة ضئيلة : خمسة في المائة فقط من تلاميذ التحضيري يصلون الى قسم الباكالوريا . اما الآخرون ، وهم الاغلبية الساحقة (95 ٪) فيضيعون كلهم في الطريق ابتداء من نقطة الانطلاق .

ان عجز البورجوازية المغربية عن القيام بالدور التاريخي الذي قامت به مثيلاتها في اوروبا ، وخاصة في ميدان التصنيع ، ثم ان تقاعس الدولة أو عجزها عن القيام بهذه المهمة في اطار تصميمات متتابعة متكاملة تستهدف التصنيع الشامل ، واقتصار نشاطها على «اقتصاديات» التصدير والسياحة — وهو عجز ناتج عن هيمنة البورجوازية المذكورة على دواليب الادارة والاقتصاد عن طريق « المغربة » ، كل ذلك جعل الاغلبية الساحقة من اطفالنا الذين يغادرون المدرسة قبل اتمام المرحلة

التانوية ، بل الابتدائية ، لا يجدون أمامهم غير الشارع مصيرا لهم . ان الشارع يشكل « الشبكة » الثانية ، الشبكة الاعظم ، ومن ثمة يمكن القول ، انه اذا كان التعليم فى فرنسا يعمل على اعادة انتاج البورجوازية المتطورة ، والبروليتارية المتخصصة ، فان التعليم فى المغرب يعمل من جهته على اعادة انتاج فئة قليلة من « المحظوظين » الذين تستعملهم الطبقة السائدة فى مجالا تاقتصادها المتخلف ، وفئات واسعة من العاطلين والمشردين الذين يعملون كل سنة على تضخيم حجم « اللومبن بروليتاريا » ، أى جماهير المسحوقين والعاطلين . ان انعدام التصنيع الحقيقى والاصلاح الزراعى الفعلى ، والاقتصار على استغلال الهياكل الاقتصادية التى تركها الاستعمار ، استغلالا متخلفا ، دون تطوير ، بل حتى بدون رعاية ، قد جعل امكانيات التشغيل ضعيفة أو منعدمة ، وبالتالى جعل المدارس المهنية غير ذات موضوع . لقد صفى التعليم التقنى والمهنى الذى تم انشاء بعض هياكله فى اطار التصميم الخماسى الاول ، عندما تقرر العدول عن الاهداف التى كان يرمى اليها هذا التصميم ، أهداف التحرر الاقتصادى والتصنيع الحقيقى. واذا كان تعليمنا الحالى يحتفظ ببعض المعاهد الفنية العليا ، فما ذلك الا لان الاقتصاد الكولونيالى الذى « يمغرب » يحتاج ، لكى يحافظ على ارتباطه وتبعيته بالاقتصاد الراسمالى فى اوروبا ، الى اطر متخصصة قادرة على التعامل فى مستوى التطور الذى بلغه هذا الاخير .

2 — هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان الالتحاق بالشبكة الاولى ، شبكة المدارس الابتدائية والثانوية أو بـ « الشبكة الثانية » شبكة الشارع والبطالة والتشرد ، لا يتحكم فيه ، فقط ، النجاح أو الفشل فى تعليم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ، فى السنة الابتدائية الاولى ، كما هو الشان فى النظام التعليمى الفرنسى ، بل تتحكم فيه ، قبل ذلك ، عدة عوامل متداخلة ، متكاملة ، ترجع ، فى نهاية الامر الى وضعية الاسرة وموقعها على الخارطة الطبقية للمجتمع المغربى . وهكذا تتوقف حظوظ الطفل فى الالتحاق بالمدرسة أصلا ، على محل سكنى أسرته (فى البادية أم فى المدينة ، فى الاحياء الشعبية أم فى الاحياء التى تقطنها الطبقات الغنية والمتوسطة) ، وعلى امكانياتها المادية (هل تستطيع الاستغناء عنه كـ « عامل منتج » ، كخادم فى المنزل أو الدكان أو كراع للغنم ؟ هل تستطيع أداء « واجبات » الدراسة فى

المدارس الحرة ؟ وما نوع هذه المدارس الحرة التي تستطيع طرق ابوابها ...؟ الخ) ، ويبقى بعد ذلك كله أن مواصلة الطفل للدراسة أو انقطاعه عنها ، بعد شهور أو سنة ، او سنوات ، تتوقف ، هي الاخرى ، على عدد من العوامل المماثلة ، على مدى قدرة الاسرة على النفقة عليه وتمكينه من الضرورات التي تستلزمها الدراسة ، على مدى استغنائها عنه كـ « عامل » شبه متعلم ، وعلى مدى قدرتها الفكرية والتربوية على مساعدته في البيت ، على نوع هذا البيت ، وعدد افراده ، وعدد اطفاله ... الى غير ذلك من الشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تحددها الوضعية الطبقية للاسرة .

كل هذه العوامل والظروف جعلت تعليمنا بعد الاستقلال يتجه، اكثر فاكثر ، ليكون تعليم لنخبة ضيقة ، تفصلها مسافات شاسعة عن بقية الشعب ، مثلما ان البورجوازية المغربية تتجه بعد الاستقلال الى الطريق الذي يجعل منها فئة قليلة العدد ، فاحشة الثراء ، تعيش حياة استهلاكية في مستوى حياة اعلى قمة في البورجوازية الغربية ، وبالتالي تفصلها عن حياة الشعب مسافات شاسعة عميقة ، تزداد اتساعا وعمقا مع مرور الايام .

3 ـ هذا فيما يتعلق بالهيكل العام لنظام تعليمنا الراهن ، بالارضية الطبقية التي يتغذى منها ويغذيها ، بالعوامل التي تحدد حجمه وتقرر ملاءة الاطفال به . واذا انتقلنا الآن الى داخل « اروقة » هذا التعليم ، فان أول ما سيلفت انتباهنا هو ذلك **الاسلوب السلطوي المسيطر في مختلف مجالات الحياة المدرسية عندنا** . انه أسلوب ورثناه من نظامنا التعليمي القديم « الكتاب » وطعمناه بما اخذناه عن « المدرسة التربوية الفرنسية » ذات الطابع السلطوي الواضح ، ومما احتفظنا به ، وهو كثير ، من الاساليب والطرق التي استعملتها الحماية الفرنسية.

ولا نحتاج هنا الى الحديث عن المظهر السلطوي البارز في تعليمنا التقليدي ، فلا زالت صورة الفقيه الذي يرفع باحدى يديه عصى طويلة على رؤوس الاطفال الصغار والمحدث « المهيب » الذي يفوه بـ « الحقيقة » في جمع من الجالسين المنصتين « وكان على رؤوسهم الطير » ، لانه وحده يملك « الحقيقة » ، لا زال ذلك كله ماثلا أمام اعيننا اليوم . كما اننا لا نحتاج كذلك الى تحليل مختلف مظاهر السلطة

التى كان يمارسها جهاز التعليم ورجاله على اطفالنا خلال عهد الحماية، فقد اشرنا الى ذلك قبل . وابرزنا تلك السلطة المضاعفة التى كان يمارسها « المسيو » على اطفالنا الصغار ، سواء كان معلما أو مديرا او مجرد « مراقب للمرور » على الطرقات . لنكتف بالقول ، اذن ، ان المعلم الذى يحمل وراء ظهره هذا الارث الضخم ، والذى يعيش فى مجتمع يعانى من ظاهرة تعميم القمع ، لن يجد سبيلا « للسيطرة » على قسم يضم ما بين 50 و60 طفلا — وغالبا ما يكون ناقص الخبرة والتكوين — غير طريق واحد هو ممارسته السلطة والارهاب والعنف على هذا العدد العديد من « الصغار المشاغبين » . ان العقاب البدنى، بالضرب أو بحمل الاطفال على رفع الايدى على الجدار ، أو اخراجهم من القسم ، مع ما قد يرافق ذلك كله من سب وشتم ، مظهر اساسى من المظاهر التي لا تخلو منها « الحياة » المدرسية عندنا . انها نفس السلطة التي يمارسها على المعلم ، بشكل أو بآخر ، كل من المدير والمفتش ، وجميع من هم فوقه فى السلم الادارى . ان المعلم عندنا ظالم فى القسم ، مظلوم خارجه ، **وتلك احدى مظاهر القمع المعمم فى فى هذه البلاد .**

والى جانب هذا القمع المادى الذى تمارسه المستويات « العليا » على المستويات الدنيا فى نظام تعليمنا ، هناك قمع معنوى آخر تمارسه الاجهزة التعليمية بعضها على بعض ، من أعلى الى أسفل . ان المعلم يتلقى الاوامر من المدير او المفتش ، وعليه أن ينفذها دون مناقشة او ابداء رأى حتى ولو كان الامر يتعلق بمجال عمله الخاص ، والمدير والمفتش كلاهما مكلفان بتنفيذ الاوامر الصادرة اليهما دون مناقشة حتى ولو كانا مقتنعين بعدم صلاحيتها ، بل وبلا معقوليتها . ان « الحقيقة » دائما تصدر من أعلى ، فهل يجوز أن نطالب المعلم ، بعد هذا ، بسلوك طريقة فى تعليم الاطفال غير طريقة التلقين والاستعلاء . ان له هو ايضا « حقيقة » يملكها وحده ، فى الدروس والمعلومات التى يمليها عليهم ويطالبهم بحفظها . ان على الاطفال ، اذن ، أن يتلقوا « العلم » « والمعرفة » من المعلم دون مناقشة أو مشاركة من جانبهم ، وعليهم ان يحفظوا « الملخصات » عن ظهر قلب ، وبدون فهم فى غالب الاحيان ، اذا هم ارادوا الافلات من العقاب المزدوج ، العقاب المادى والعقاب المعنوى (الامتحانات) . على أن للمعلم بعض « العذر » فى هذا المجال ،

فالبرامج والمناهج مثقلـــة بمواد الحفظ التي تستوجب اعتماد أسلوب التلقين ، وحشو الذهن بالمعلومات ، وهو مطلب بانهائها حسب لائحة رسميه هي التوزيع الاسبوعي والشهري والسنوي ، والا تعرض هو نفسه للعقاب .

4 — ان الاسلوب السلطوي المهيمن في مجال التطبيق ، مجـــال العلاقات المشخصة في نظامنا التعليمي ، نجده يمتد ، وبشكل خطير ، الى مجال الفكر . يتعلق الامر هنا خاصـــة بالايديولوجيا التي يخدمها ويرسخها تعليمنا الراهن . ولكـــي نـــدرك أبعاد هذه الايديولوجيـــا ومصادرها المختلفة ، لابد من ملاحظة ما يلي :

— ان الطبقة البورجوازية المغربية التي نشأت وترعرعت في أحضان الاقتصاد الاستعماري، والتي تحرض الآن، ومنذ سنوات، على « مغربة » تركة الحماية الفرنسية ، طبقة هجينة لا تتوفر على جذور وطنية ، ولا على ماض بورجوازي ثوري . انها لم تتشكل محليا حسب قوانين التطور الذاتي للمجتمع المغربي ، لم تقم كنقيض للاقطاع ، كما حدث في اوروبا، وبالتالي فهي لا تتوفر على تقاليد ليبرالية راسخة ، ولا على ميـــول عقلانية علمانية صريحة . ان عجزها البنيـــوي عن حمل الايديولوجيـــا البورجوازية الليبرالية بكامل ابعادها ، نظرا لتكوينها الهجين الخاص ، وارتباطها بالفئات الاقطاعية ايام الحلف الوطني الذي قام ضد الحكم الاجنبي، وشعورها حاليا بالحاجة الى مساندة القوى الرجعية المتخلفة لمواجهة القوى التقدمية الصاعدة ، كل ذلك جعلها تتبنى الفكر الاقطاعي كغطاء ايديولوجي تحاول تغليفه ، من حين لآخر ، باغلفة ليبرالية .

ان الفكر الذي يهـــدد هذه الطبقة البورجوازية ، هو ، بلا مراء الفكر التقدمي ، الفكر الاشتراكي العلمي. وبما انها لا تستطيع حمل الفكر الليبرالي بكامله ، ولا تقدر على استيعابه وتمثله ولا على تطويعه حسب الحاجة ، فانها تحتمي بالايديولوجيا الاقطاعية وتتخذ منها سلاحا ضد الفكر التقدمي ، سواء كان نابعا من تراثنا الوطني العربي الاسلامي، او كان امتدادا للفكر التقدمي العالمي . ومن هنا كانت ايديولوجيتها عبارة عن خليط من العناصر الرجعية في الفكر الليبرالي المنقول الينا عبر قنوات التبعية الثقافية والاعلامية ومن العناصر المتخلفة المنحطة في فكرنا التقليدي. ان عدم قدرتها على تبني الايديولوجيا الليبرالية ، بكامل ابعادها العقلانية

والعلمانية نظرا للاسباب التى ذكرنا ، ثم ان وضعيتها كبورجوازيـــة لا يمكنها تحقيـــق مصالحها عن طريق القبول التام وباخلاص ، للفكـــر الاقطاعى ، جعلاها تضطر الى الاقتباس من هذا وذاك حسب الظروف، وحسب تطور مصالحها الطبقية .

— واذن ، فعملية التاطـــير الايديولوجى التى يقوم بها نظامنـــا التعليمى عملية متوترة ، ارهابية ، بفعل التناقضات التى اشرنا اليها . انها عملية تستند تارة الى الفكر الليبرالى الغربى ، ولكن بحجل وتحفظ، وتارة الى الفكر التقليدى الرجعى ، ولكن بكثير من التردد ويدافع المصلحة الوقتية فقـــط . هذا ما يفسر التقلبات التى عرفها التعليم فى بلادنا : (العمل على تصفية التعليم الاصلى ، ثم العودة الى احيائه وانعاشه ، تغيير البرامج والمناهج باستمرار ، انعدام اية سياسة تعليمية تارة فى مجالات التوحيد والتعريب والتكوين ..) بهذه العملية تحرص الطبقـــة المسيرة على اعادة انتاج نفس الوضعية السائدة بكل تناقضاتها لانها لا تستطيع العيش الا فى اطار هذه التناقضات التى تحاول تغطيتها بالجمع الكاذب بين « الاصالة والمعاصرة »

هناك ، اذن ، تاطير رأسمالى ، بورجوازى ، متخلف ، يعمـــل على اعادة انتاج نفس البورجوازية الهجينة الحالية بالشكل الذى يؤهلها لان تواصل القيام بدور الوكيل والوسيط للامبريالية العالمية وتطوراتها التقنية ، واداته كل ما هو « عصرى » « ومعاصر » فى تعليمنا ، اى كل ما يمكن ادراجه فى اطار المعاصرة : (المواد العلمية ، الشعب التقنيـــة المتخصصة ، المدارس الحرة « النموذجية » ، مدارس البعثة .. الخ).

وهناك ، فى نفس الوقت ، وفى نفس النظم والهياكل والاساليب تاطير ذو مضمون اقطاعى ، مهمته القيام بدور « الحصارات » للجانب « العصرى » للحيلولة دونه ودون بلوغ الابعاد « الثورية » للايديولوجيا البورجوازية من جهة ، واعادة انتاج نفس الفكـــر التقليدى الاقطاعـــى لاستعماله فى مقاومة الافكار التقدميـــة ، من جهة اخرى . واداة هذا التاطير الاقطاعى والشبه الاقطاعى هو التعليم الاصلى بمختلف فروعه، والمواد التراثية فى التعليم العصرى نفسه . وهكذا فباسم « الاصالة » المزعومة ، يستغل تراثنا العربى الاسلامى استغلالا رجعيا يجعل منه « الحاجز الواقى » ضد ما هو تقدمى وثورى فى الفكر المعاصر ، بل وفى

الفكر الاسلامي نفسه . ان الجمع بين « الاصالة » « والمعاصرة » بهذا الشكل ، جمع تلفيقي توفيقي ، الهدف منه خدمة أغراض ايديولوجية واضحة ، الاغراض التي تحدثنا عنها قبل .

وبالنظر الى هذه المعطيات جميعها ، وبالنظر كذلك الى تشابكها وتداخلها ، يتبين **ان المدرسة المغربية الراهنة ، هي عبارة عن جهاز بورجوازي بمضمون اقطاعي .**

هي جهاز بورجوازي لمدارس عصرية ، مواد عصرية ، اساليب « عصرية ») يكرس الوضعية الطبقية السائدة من خلال تركيبه العام الذي تحدثنا عنه وعن انتاجيته ، ولكن مع الاحتفاظ بنفس المضمون الاقطاعي الذي اشرنا اليه ، والذي تتخذه « البورجوازية المغربية » ودولتها « الليبرالية » غطاء ايديولوجيا لها ، وسلاحا تواجه به الفكر التقدمي وتطلعات الاجيال الصاعدة . يتجلى هذا المضمون الاقطاعي في الاساليب السلطوية التي تحدثنا عن بعض مظاهرها ، وبكيفية خاصة في الايديولوجيا السلطوية الارهابية ، ايديولوجيا الطاعة والاستسلام التي تعمل البرامج الدراسية على تركيزها بواسطة بعض المواد كالتاريخ والتربية الوطنية والنصوص التراثية التي تستغل استغلالا رجعيا ، انتقائيا لا تاريخيا . هذا بالاضافة الى الوسائل الاعلامية المكملة لدور المدرسة ، وعلى راسها الاحاديث الاذاعية وبعض النشرات المعروفة (الجرائد ، المجلات) .

* * *

واضح مما تقدم ان المدرسة المغربية الراهنة تعكس الوضعية العامة السائدة ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، في نفس الوقت الذي تعمل فيه على تكريس هذه الوضعية وتعميقها واعطائها طابع الاستمرار .

ولكن هذا جانب واحد من الصورة ، وهناك جانب آخر ، الجانب النقيض . نعم ، أن لكل أطروحة نقيض . **ومن صلب المدرسة تخرج باستمرار قوى الرفض والتغيير .**

من مدارس الحماية الفرنسية في المغرب تخرجت افواج من الشباب

تنادى بالغاء الحماية واسترجاع السيادة ، أفواج اندمجت فى العمل الوطنى وساهمت فى قيادته وتوجيهه وجهة أكثر جذرية . لقد نجح العمل الوطنى فى أفشال جزء هام من المخطط التعليمى الاستعمارى ، وتمكن من استقطاب عدد كبير من الاطر المتعلمة ، حتى تلك التى تنتمى الى عائلات بورجوازية ، فكان لها دور كبير فى حركة التحرير الشعبية التى خاضها شعبنا ضد الاستعمار الفرنسى والاسبانى بل أن الحركة الوطنية، انما بدأت عمليا فى المؤسسات التعليمية ، فى القرويين بفاس ، وكلية ابن يوسف بمراكش ، وفى الثانويات الاسلامية والمدارس الحرة ، ومن هناك انطلقت الى البيوت والشوارع لتلتحم بجماهير الشعب ، جماهير العمال والفلاحين التى أعطتها بعداً جديداً ، بعد النضال الملموس والمقاومة المسلحة .

واذا كان التاريخ لا يميد نفسه ، فان للاحداث التاريخية ، ولتسلسلها وتطورها ، قوانين موضوعية ، ومنطق واضح . ولذلك فليس من قبيل الصدفة ان تبدأ التحركات الاعتراضية ، عقب الاستقلال ، فى ابواب مدارسنا بالذات . وليس قبيل الصدفة أن يكون الطلبة والتلاميذ فى طليعة الجماهير المناضلة من أجل استكمال التحرير واقرار الديمقراطية وتشييد الاشتراكية ، طوال العشرين سنة التى مضت الآن على الاعتراف باستقلال بلادنا .

وهل نحتاج هنا الى التذكير بنضالات الاتحاد الوطنى لطلبة المغرب، وبنضالات تلامذة الثانويات ؟ لقد لعب الطلاب والتلاميذ ورجال التعليم من معلمين واساتذة دوراً طلائعيا فى النضالات اليومية التى خاضتها وتخوضها جماهير شعبنا الكادح ، وكثيرا ما كان اعتراض الطلبة أو التلاميذ على قرار جزئى يخص سير تعليمنا منطلقا لنضالات جماهيرية أوسع . هو خاطىء ، أو متغافل عن الحقيقة ، من يظن أن التحركات الاعتراضية التى يقوم بها التلاميذ والطلبة من حين لآخر ، تحركات « طائشة » معزولة من « تدبير المشوشين » . كلا ، انها شكل من أشكال الصراع الاجتماعى ، والنضال الطبقى . **ان قضية التعليم وقضية الخبز فى هذا العصر ، وفى بلادنا بالذات ، هى قضية واحدة . ان من يملك الخبز يستطيع أن يتعلم ، ومن تعلم يستطيع أن يملك الخبز .**

والنضال من أجل التعليم والخبز نضال ضد طبقة واحدة ، الطبقة التى تحتكر الاقتصاد والعلم الثقافة .

ولذلك ، فالنضال من أجل تعميم التعليم وديمقراطيته ، هو جزء لا يتجزأ من النضال العام الذى يخوضه شعبنا من أجل الديمقراطية الفعلية والعدالة الاجتماعية الحقة .

والنضال من اجل تعريب التعليم واعطائه طابعا قوميا تقدميا هو جزء لا يتجزأ من النضال العام الذى يخوضه الشباب والمثقفون التقدميون ضد الايديولوجيا الهجينة السائدة ، الايديولوجيا التى تحاول أن تجمع ، باسم « الاصالة والمعاصرة » بين ما هو رجعى فى تراثنا ، وما هو سطحى ومتخلف فى الايديولوجيا البورجوازية .

انه نضال ضد طبقة مستغلة ، وايديولوجيا تبعية . نضال سينتصر لا محالة ، لانه يعبر عن حركة التاريخ ويجسم مسيرته .